مجرد خطيئة

وفاء بوشام- الجزائر

جمع بينهما القدر في موقع أزرق مريض، الفتاة من أسرة محافظة لم تعرف الحب قبلا ولا صدقته، حياتها مليئة بالأحلام والأمنيات الطفولية البريئة، كانت صافية نقية السريرة عذبة الخلق مليحة الهيئة فريدة من نوعها، لم تك تخالط من هن بسنها ولا تحب مجالستهن، كان لها عالمها الخاص بها، لها رفيق واحد تجالسه طول اليوم دون ملل ولا كلل " الكتآب" بكل ما فيه من أسرار وخبايا تتعمق فيه تدارسه وتحادثه وتأخذ منه عبرا ودروسا لم تجدها إلا خادمة لها في واقع مريض ملون، عن الفتى فقد كان شابا ثلاثينيا أرعنا ولم تكن هذه الصفة قليلة فيه إذ كان رغم كبر سنه يلهو ويتنقل من نافذة لأخرى يحادث الفتيات ويمازحهن ويجادلهن ويتفاخر بموسوعيته إذ كان للأسف نجيبا والتحق بالتدريس ولو لم يكن أهلا له .. لكنها الغبية تحت تأثير الحب الأعمى فقدت بصيرتها عن كل سلبياته وراحت تجعل منه قدوة وعالما فيلسوفا ترى فيه الجد والثبات والأخلاق (وللأسف فقد جعلنا بعالمنا العربي الأخلاق موسومة في قميص ولحية مشذوبة)، لم تره على حقيقته وكيف يمكن لموقع افتراضي وهمي أن يكشف سريرة المرء وجوهره .. بل وكيف لمن يدعي حب الله ورسوله أن يكون مستخِفا لعوبا مثله!

هه .. على غفلة منها وبتهاون شديد من المحافظِة المعقدة راحت تنساق وراء كتاباته المنمقة، تستفسر علما وتطلب فلسفة تفيدها أما عنه فقد أجاد بث سمومه

فيها جيدا، أراد لها ان تتعلق به كما فعل بغيرها قبلا، أراد اكتشافها وغموضها فوجدها حصنا منيعا ثابتا وهذا ما جعله يضاعف جهوده للوصول عليها، ادعى العلم والجاه والثقافة والأدب والخلق الجم وكابر بنفسه على الجميع، تقرب منها وجعلها تعرفه كثيرا .. كنيته، عمله، كتاباته، هواياته، أسرته، مشاريعه.. والله وحده يعلم إن كان صادقا بكل ما قاله، في المقابل كانت الفتاة العشرينية تغامر بمبادئها التي رسمتها مذ عرفت الدنيا، وأول ما صنعته أنها أزاحت مبدأ أوسكار وايلد كاتبها المفضل إذ كانت تؤمن بأقواله خاصة حين قال بأن الصداقة بين الرجل والمرأة صفر لا وجود لها، قد يوجد حب، كره، حقد، أي شعور إلا الصداقة فلا.. لكنها البلهاء صادقته وبكل عفوية أخبرته عنها، عن أحلامها البريئة: أن تسافر لكل بلد عربي تجوبه .. أن تفني حياتها في طلب العلم، حتى أنها أسرت إليه عن أجمل أهدافها وأحلاها على الاطلاق ذاك السر الذي أخفته عن الجميع حتى عن نفسها وارته وخبأته، لكن حين جاء الفارس المغوار راحت تضج إليه بكل ما فيها وعندها.. ثرثارة هي معه حد التفاهة .. رُبما هكذا كان ينظر إليها، هه .. قد وصل بها الأمر إلى مكاشفته بأسرار رفيقها الوحيد قدمت له خلاصة عن أجمل الكُتاب الذين تحب أعمالهم ولا تنام دون القراءة لهم .. حتى نبتة الصبار التي تهتم بها ولم تخفِ أمرها عنه .. جعلت من نفسها مرآة شفافة أمامه، وكان هذا ذنبها الوحيد الذي تؤخذ عليه ما عاشت، وستندم عليه لاحقا ..

إذ كعادته يفرض الرجل الشرقي المستبد شروطا على عاتق أنثاه لا تكاد تطيقها بالمرة، لأنه يغار وجب عليها إرتداء الستار، ولأنه ليس ديوثا فلا يقبل أن تعمل زوجته أو تدرس طول حياتها كما تريد، ولأنه يهتم بها فسيمنعها من الخروج والسفر والتجوال دون أخذ رأيه وكأنه ولي أمرها أو عقد عليها في عالم أزرق وهمي، هه وصل به الأمر ان يضع بنات يتجسسن عليها ويأخذن له أخبارها، والغريب أنه حين منعها من الدراسة كان يطالبها بأن تكون الأولى على دفعتها لا لشيء إلا ليفخر بين أصحابه فيما بعد قائلا :(إن زوجتي مجتهدة مثقفة والأولى على صفها وهاهي في بيتي تطهو وتخدمني ولا تبرح المكان دوني ..)

وكيف لا يكون هكذا طبعه من لم يهدأ في يوم ينتقل من أنثى لأنثى ويتجول بين كل الورود ليأخذ منها ما يشاء، ثم لا بأس بأن يعدد النساء فهو من الشرع، أميٌّ مثله لم يعرف الشرع إلا في تزيين مظهره وهندامه، ويا سوء من جمّل خارجه ومهما صنع يبقى باطنه عفنا نتنا، لو كان يرعى حق الله في الأثواب حقا، فالأحرى به أن يرعى حق الله في القوارير، والأحرى به أن يرعى حق الله في نفسه فلا يدنسها ولا يفتتن بما جمل له الشيطان أن يراه، لو كان يرعى حق الله ..

هه.. بعدما كان يناديها بوردتي البرية الجميلة، أراد اختزانها ودفنها واقتلاعها من جذورها ورميها في سجنه، ثم يبحث له عن مصيدة أخرى ..

لكنها المحافظة المعقدة .. رُبما أنبها ضميرها وربما عدلت عن رأيها وربما صار خانقا لها حبيبها .. إذ أوثق عليها حباله وعقدها جيدا ..

راحت بكل رباطة جأش تلومه وتؤنبه، لكن الشكر كل الشكر للعالم الوهمي الافتراضي إذ أبان لها عن حبيبة أخرى كشفت نفسها وأرادت الانتقام منه، وقتها فقط استيقظت المحافظة من غفلتها..

رمت عنها تلك القيود الكاذبة جانبا.. نكثت بوعودها أن تخضع له بالطاعة .. حررت نفسها لتعود إلى البرية .. تعيش، تتنفس، تحيا فلا تموت إلا في أحضان الطبيعة ..

بداية، كانت الطبيعة رافضة لها ثم مع مرور الوقت استقبلتها بأخطائها وغفرت لها الزلل، توبتها النصوح جعلت منها طيرا جميلا يرفرف في سماء الحب والجمال والبديع بعيدا عن كل ما هو وهمي افتراضي .. راحت ترسم أضغاث أحلام على قارعة الحياة، تهدهدها بترنيمة سلام شاعري.. إلى يوم سعيد ..